منال وحسين
(6)

سمك مشوى

الكاتبة الراحلة



أماني العشماوي
(رحمها الله)

منال وحسين (6)

سمك مشوى

أماني العشماوي

أنا منالُ، وأخي حُسَينٌ يصغُرني بسنَتَين، لذلك، أنا أعتني به وأرعاه طولَ الْوقتِ، فأنا الأختُ الكُبْرى، وإن كان هو في غايةِ الذَّكاءِ، فكثيرًا ما يَقترِحُ عليَّ أنواعًا مِنَ الألعابِ تَنتَهي بأخطاءٍ خَطيرَةٍ.. كنتُ أَعترفُ بها سريعًا لأبي وأمي، لكنّ أخي حسينًا يُفَكِّرُ دائمًا في فِكرَةٍ تُجَنِّبُنا الْعُقوبَةَ، بنفسِ السُّهولَةِ التي يَقْتَرِحُ بها الألعابَ الْخَطِرَةَ.

انتهَى العامُ الدراسيُّ، وذهبَ جَدّي وجَدَّتي لأُمّي ومعهم خالي عبدُ الرَّحيمِ، إلى الْمَصْيَفِ في قَرْيَةِ زُمُرُدَّة، بالسّاحِلِ الشَّمالِيّ. فَهُمْ يُمْضونَ أَغْلَبَ الصَّيْفِ هُناكَ، ولَهُمْ بَيْتٌ مِنْ طابِقَيْنِ، الأَرْضِيُّ لِجَدّي وجَدَّتي، والأعلَى لِخالي.. وكُنّا، نَحْنُ الأَحْفاد، نَذْهَبُ مَعَهُمْ كُلَّ عامٍ لِبَعْضِ الْوَقْتِ.. وهذا ما فعلْناهُ هَذِهِ السَّنَةِ أَيضًا.

بينما نحن نُفْطِرُ في أَحَدِ الأَيّامِ، نَزَلَ خالي مِنَ الطّابِقِ الأعْلَى، وقالَ لجَدّي وجَدَّتي: "سَوْفَ أُحْضِرُ مَعِيَ الْيَوْمَ سَمَكًا مَشْوِيًّا.. فاعْزِما مَنْ أرَدْتُما على الْغَداءِ".

فأظْهَرْنا كُلُّنا فَرْحَتَنا بِالسَّمَكِ الْمَشْوِيِّ.. حتى أنا مع أنّي أُفَضِّلُ سَمَكَ الصّينِيَّةِ اكْثَرَ.. لَكِنّي أُحِبُ الْمَشْوِيَّ كَذَلِكَ.. فلا بأس.

بعدَ الإفطارِ انْطَلَقَ كُلُّ مِنّا في طَريقِهِ، إلى الْبَحْرِ أو الْمَسْبَحِ، أو الْمُرورِ على بعضِ الأَصْدِقاءِ.. وخرجتُ أنا إلى الحديقةِ وجلستُ على سُلَّمِ الشُّرْفَةِ لأقرأَ.. فرأيتُ أخي حُسَيْنًا يَقْفِزُ من فَوْقِ السورِ الْمُنْخَفِضِ الذي يَفْصِلُ الحديقةَ عنِ الطريقِ بَيْنَ الْبُيوتِ.. قَفَزَ وَحْدَهُ.. دونَ أن يَقولَ شَيْئًا. فقُلْتُ لِنَفْسي: لابُدَّ أَنَّهُ يُخَطِطُ لِعَمَلٍ قد يُسَبِّبُ ضَرَرًا لِنَفْسِهِ أو لِغَيْرِهِ.. فنادَيْتُهُ: "حُسَيْن.. إلى أَيْنَ؟" فقالَ: أَتَمَشَّى قليلاً قبلَ الذِّهابِ إلى الْمَسْبَحِ".

قُلْتُ لِنَفْسي: حُسَيْنٌ!! يَتَمَشَّى وَحْدَهُ!! لِماذا"؟! وأسْرَعْتُ بالْقِيامِ، وقفزتُ من فَوْقِ السورِ الْمُنْخَفِضِ وَلَحِقْتُ بِهِ قبلَ أنْ يَخْتَفي، وأنا أقولُ:" فُرْصَةٌ.. سَأَتَمَشَّى مَعَكَ".

كُنْتُ على حَقٍّ في ظَنّي أَنَّهُ يَنْوي أَمْرًا غَيْرَ عادِيٍّ.. فقد سارَ بَيْنَ الْبُيوتِ حتى وَصَلَ إلى بَيْتِ جيرانِنا الذين نلعبُ معهم عِنْدَ حَمّامِ السِّباحَةِ. كان عادلٌ وعَلِيٌّ وسَوْسَنُ يجلسون في الحديقةِ مع أقارِبِهِم الذين يسكُنون في الطابِقِ الأعلى، فقالَ لَهُمْ حُسَيْنٌ بِأُسْلوبٍ مَسْرَحِيٍّ: صباحُ الْخَيْرِ إخواني.. جِئْنا نَدْعوكُمْ لِتَناوُلِ الْغَداءِ معنا الْيَوْمَ.. على سَمَكٍ مَشْوِيٍّ". فَزِعْتُ، فهو لم يَسْتَأْذِنْ جَدّي وجَدَّتي، ولا خالي..

هَمَسْتُ له: نَسْتَأْذِنُ أَوَّلاً".. لَكِنَّهُ قالَ بِثِقَةٍ شَديدَةٍ: "خالي قالَ اعْزِموا مَنْ شِئْتُمْ".

لم تتح لي الفرصة لأن أقول له إن خالي كان يقصد جدي وجدتي، ولا يقصدنا نحن.. لكن عادل سبقني وقال: "لقد دَعَوْنا أقارِبَنا لِيَتَغَدّوا معنا"..

فانْطَلَقَ أخي يقولُ: "لا واللهِ، هُم أيضًا مَدْعُوونَ لِلْغَداءِ معنا".. والْتَفَتَ نَحْوَهُم يَدْعوهُم واحدًا واحدًا.. فقالَ عَلِيٌّ: إذن قَبِلْنا الدَّعْوَةَ".. وقالتْ سَوْسَنُ وَهِيَ تقومُ في الحالِ: "سَنَسْتَأْذِنُ الْكِبارَ".

سارَ حُسَيْنٌ في الْقَرْيَةِ كُلِّها يدعو أصحابَهُ ومَعارِفَهُ على السَّمَكِ الْمَشْوِيّ الذي سَيُحْضِرُهُ خالي، وأنا أرجوهُ أن يَتَمَهَّلَ ويَسْتَأْذِنَ خالي أَوَّلاً، ربما كانَ السمكُ الْمَشْوِيُّ لا يَكْفي كُلَّ هَؤُلاءِ الْمَدْعُوّينَ.. لَكِنَّهُ كانَ يقولُ بِثِقَةٍ لا حُدودَ لها: "لابُدَّ أَنَّ خالي عَمِلَ حِسابَهُ أَنْ يَكْفي السَّمَكُ مَنْ نُحِبُ أَنْ نَدْعُوَهُم"!!

تَأَكَّدْتُ أَنَّنا سَنُواجِهُ كارِثَةً عَظيمَةً في الْبَيْتِ.. ولم أَعُدْ أَحْتَمِلْ الْمَزيدَ مِنَ الدَّعَواتِ.. ولم أَتَمَكَّنْ مِنْ إقْناعِ أَخي بالتَّوَقُّفِ، ولا أَسْتَطيعُ أَنْ أُخْبِرَ أَهْلَنا دونَ عِلْمِهِ، كأَنَّني أَفْتِنُ عَلَيْهِ.. فَرُحْتُ أُفَكِّرُ في حَلٍّ لإنقاذِ الْمَوْقِف بأقلِ الأضرارِ المُمْكِنةِ.. فتركتُهُ وسِرْتُ عائدةً إلى البيتِ، وفي طريقي مَرَرْتُ على محلِّ عَمِّ سَعيدٍ السَّمّاكِ، فَخَطَرَ في بالي حَلٌّ مُناسِبٌ.. فدَخَلْتُ المحلَّ.. وسَلَّمْتُ كالْعادَةِ، وقُلْتُ لِلْعَمِّ سَعيدٍ بِأَدَبٍ، بثِقَةٍ تُشْبِهُ ثِقَةَ أَخي حُسَيْنٍ: "جِئْتُكَ مِنْ بَيْتِنا.. نُريدُ مَزيدًا مِنَ السَّمَكِ، لأَنَّ ضُيوفَنا زادَ عَدَدُهُم".

فابْتَسَمَ عَمٌّ سَعيد وقالَ: أهلاً ومرحبًا.. نَزيدُ السَّمَكَ الْمَشْوِيَّ"؟؟ فَكَّرْتُ أنَّها فُرْصَتي في أَكْلِ سَمَكِ الصّينِيَّةِ، فقلتُ: كلا.. كلا.. نُريدُ سَمَكَ صينِيَّةٍ.. يَكْفي ثلاثينَ نَفَرًا".

بدا على عَمِّ سَعيدٍ الشَّكُّ في كلامي، وأَمالَ رَأْسَهُ إلى الْيَمينِ وهو يَقولُ: "ثلاثون؟ مُتَأَكِّدَة".

قُلْتُ: "طَبْعًا، لَكِنّي نَسيتُ أنْ أُحْضِرَ الفلوسَ.. انْتَظِرْني قَليلاً"..

قالَ بِسُرْعَةٍ: لا داعي لِلْعَجَلَةِ، خالُكِ لم يدفعْ المبلغَ كُلَّهُ.. وبَيْنَنا حِسابٌ".

لَكِنّي كُنْتُ قد خَرَجْتُ أَرْكُضُ مِنَ المحلِّ أَبْحَثُ عن أخي حُسَيْنٍ.. فلما عَثُرْتُ عليهِ صِحْتُ قائِلَةً: فلوسي لا تَكْفي وأحتاجُ جُزْءًا من فلوسِك".. لكنَّ أخي الشَّهْمَ لا يَنْتَظِرُ حتى أشرحَ له حاجتي أو المبلغَ الذي أحتاجُهُ.. فوضعَ يَدَهُ في جَيْبِهِ وأخرجَ كُلَّ ما فيه، وَأَعْطانيه وهو يقولُ: في دُرْجي في الْبَيْتِ هُناكَ باقي الفلوسِ، إذا احْتَجْتِها، عودي إلى الْبَيْتِ وخُذي ما تشائين".

شكرتُهُ وأسرعتُ إلى الْبَيْتِ، فوجدتُ جَدّي وجَدَّتي يَجْلِسانِ في الشُّرْفَةِ، يقْرَآنِ كالعادةِ.. فقلتُ، قبلَ أنْ أُفَكِّرَ: "مُمْكِن تُسَلِّفيني يا جَدَّتي خَمْسينَ جُنَيْهًا، وأرُدُّها لكِ غدًا عندما أقبضُ مَصْروفي؟".

كنتُ مُتَسَرِّعَةً جدًا، فَجَدَّتي عندما تُعْطينا نُقودًا، لا تَسْتَرِدَّها منا أبدًا، حتى لو اتَّفَقْنا معها أنَّها قَرْضًا..

كانت تقولُ: "الجدودُ والجداتُ لا يَسْتَرِدّون نقودًا أعطوها أحفادَهُم"..

لذَلِكَ كُنّا لا نَطْلُبُ مِنْهُما قُروضًا أبدًا، كُنّا نَخْجَلُ أنْ نَسْتَغِلَّ كَرَمَهُما، إلا إذا احتجنا المالَ لِمَشْروعٍ خَيْرِيٍّ أو خِدْمَةٍ نُقَدِّمُها لِغَيْرِنا.. وكانا لا يَسْألانا عن سببِ القرضِ، لكننا كنا نشرحُ لهما سببَ القرضِ عندما نُحاوِلُ أنْ نَرُدَّهُ، فيَرْفُضانِ.. لِنُهَوِّنَ عن أنْفُسِنا أننا انتهزنا فُرْصَةَ كَرَمِهِما وحُسْنَ ظَنِّهِما بنا.

المُهِمُّ.. نظرتْ جَدَّتي لي طويلاً، وأنا واقِفَةٌ أمامَها لا أدري أَيْنَ أُوَجِّهُ نَظَري ولا ماذا أفعلُ بِيَدَيَّ.. وأخيرًا قالتْ: حقيبةُ يَدي في حُجْرَةِ النَّوْمِ، خُذي منها خَمْسينَ جُنَيْهًا".

انطَلَقْتُ إلى حُجْرَتِها، وحملتُ الحقيبةَ وعُدْتُ بها راكِضَةً، فَجَدَّتي تقولُ لنا دائمًا: "خُذْ كذا مِنْ حقيبتي"..

لكنَّنا لا نفتحُ حقيبتَها أبدًا.. هكذا عَلَّمَتْنا أُمِّي، فقد كانتْ تقولُ لنا: "الجَدَّةُ تقولُ لكِ خُذي كذا.. من بابِ الذَّوْقِ والتَّهْذيبِ، وعَلَيْكِ أنتِ مِنْ بابِ الأدبِ والتَّهْذيبِ أنْ تَحْمِلي لها الحقيبةَ فتَفْتَحَها هِيَ".

ابتسمتْ جَدَّتي وأخرجتِ المبلغَ المطلوبَ ثُمَّ أعطَتْني الحقيبةَ لأُعيدَها مكانَها.. بعد ذلك، انْطَلَقْتُ إلى حُجْرَةِ الصِّبْيانِ وفتحتُ دُرْجَ أخي فوجدتُ بهِ خمسةً وسبعينَ جُنَيْهًا.. أخي هذا ناصحٌ جدًا.. يَصْرِفُ نُقودَهُ على ما يُحِبُّ، لَكِنَّهُ يَسْتَطيعُ الامْتِناعَ عنِ الصرفِ تمامًا عندما لا يحتاجُ شَيْئًا.

انطَلَقْتُ خارِجَةً مِنَ الْبَيْتِ رَكْضًا إلى محلِّ عَمِّ سَعيدٍ حامِلَةً النُّقودِ، وأَعْطَيْتُهُ كُلَّ ما معي، فنظرَ إلى النُّقودِ ثُمَّ إِلَيَّ، بِتَشَكُّكٍ..

وقالَ: أَخَذْتِ هذه النقودَ مِنْ خالِكِ"؟

فقلتُ بِسُرْعَةٍ: "كَلّا.. مِنْ جَدَّتي".. فَبَدا عليهِ الاطْمِئنانُ، وقالَ: "عُمومًا حِسابي النِّهائي مَعَ خالِكِ".

شَكَرْتُهُ وخرجتُ وأنا غَيْرُ واثِقَةً هل كانتِ النقودُ أكْثرَ أم أقلَّ مِنَ الْمَطْلوبِ.. لكن عَمَّ سعيد قَبِلَها على أَيَّةِ حالٍ، وسَيَجِدُ الْكِبارُ سمكًا كافِيًا لِكُلِّ هَؤُلاءِ الأصْحابِ الذين دعاهُم أخي حُسَيْنٌ.. تَمَشَّيْتُ بِبُطْءٍ

نحو البيتِ، وأحضرتُ كِتابي وجلستُ مع جَدّي وجَدَّتي في الشُّرْفَةِ.. لَكِنّي لم أقرأْ سطرًا واحدًا مِنَ الْكِتابِ، وإنَّما رُحْتُ أسْأَلُهُما كُلَّ حينٍ أسئلةً عن تاريخِ السّاحِلِ الشَّماليِّ، وتاريخِ عائِلَتِهِما، وتاريخِ مِصْرَ.. حتى قالتْ لي جَدَّتي: خالَتُكِ سَناءُ تُحَضِّرُ المائِدَةَ لِلْغَداءِ، اذْهَبي وساعِديها".. قُلْتُ: "حاضِر".. وانْطَلَقْتُ إلى الْمَطْبَخِ.

.. ثُمَّ.. بَدَأَ الأصحابُ بالوصولِ، مِنْ كُلِّ أرجاءِ قَرْيَةِ زُمُرُّدَة، وقبلَ أن تَزْدَحِمَ الحديقةُ، وصلَ خالي عبدُ الرَّحيمِ، وقالَ إنَّ السَّمَكَ في الطَّريقِ، وفوجِئَ بأعدادِ الصِّبْيانِ والبناتِ في الحديقةِ وفي البَيْتِ، منهم مَنْ يَجْلِسُ مع جَدّي وجَدَّتي، ومنهم مَنْ يُساعِدُ خالَتي سناءَ في اسْتِعْداداتِ الطَّعامِ، ومنهم مَنْ يَسيرُ في الحديقةِ مُتَأَمِّلاً نباتاتِ الصَّبّارِ.. والباقونَ يَلْعَبونَ أو يَتَحَدَّثونَ. ووقفتُ أنا في الصَّالَةِ أُراقِبُ خالي، فَرَأَيْتُهُ يَلْتَفِتُ ويَنْظُرُ إلى زَوْجَتِهِ كأَنَّهُ يسأَلُها: ما هذا؟".. فابتسمتْ ونظرتْ إليه كأنَّها تقولُ: لا أدري"..

خرجَ خالي إلى الشُّرْفَةِ وخرجتُ وراءَهُ، ورأيتُهُ يهمسُ لجَدّي: "مَنْ هَؤُلاءِ؟"..

فهمسَ لَهُ جَدّي: "يَبْدو أنَّ الأَوْلادَ دَعَوْهُم على الْغَداءِ".. فهمسَ خالي: لَكِنَّنا لم نعملْ حِسابَ هَذا الْعَدَدِ"!

.. ثُمَّ رَنَّ جرسُ المحمولِ، فردَّ خالي، كان الْمُتَحَدِّثُ جارَنا أبا عادلٍ وعليٍّ وسوسنَ، يشكرُ خالي على دَعْوَتِهِ للأولادِ، ويَسأَلُهُ إذا كان يَحتاجُ أيَّ خِدْمَةٍ.. فتماسكَ خالي وشكرَهُ وأقفلَ الخَطَّ،

ثُمَّ قالَ لخالتي سناءَ: "ماذا عِنْدَنا في الفريزرِ؟؟ لِنُجَهِّزَهُ سريعًا لِكُلِّ هذا العددِ"!!

وبينما خالي وخالَتي يبحثونَ في الفريزرِ، وصلَ السمكُ المشويُّ والصينيةُ، وراحَ عُمّالُ المحلِّ يُحَوِّلونَ الصواني والصحونَ، ونتناولُها منهم ونَرُصُّها على المائدةِ، وعندئذٍ ظهرَ الشكُّ على وَجْهِ خالي، وقالَ للعاملِ الذي سَلَّمَهُ فاتورةَ الحسابِ: "لَكِنَّني لم أطلبْ كُلَّ هذا السمكِ"!

فقال العاملُ: "نعم.. لَكِنَّ المعلمَ سعيدَ قال إنَّكُم طَلَبْتُموهُ في وقتٍ لاحِقٍ".. هَزَّ خالي رأسَهُ، واتصلَ بعمِّ سعيدٍ السَّمّاكِ، وسأَلَهُ بالتفصيلِ عَمَّنْ طلبَ، وكَيْفَ، وما هذا الحسابُ العجيبُ.. ثُمَّ قالَ لِزَوْجَتِهِ، إنَّهُ سمكُنا، هيّا نَغْرِفُ للشبابِ في الحديقةِ ثم نجلسُ نحنُ للأكلِ.

حَرَصْتُ ألّا أنظرَ نَحْوَ خالي طولَ وقتِ الْغَداءِ، فلابد أنَّ عمَّ سعيدًا حَكَى له عني.. لَكِنّي لاحظتُ أنَّ خالي لم يُكَلِّمْ حُسَيْنًا، لَكِنَّهُ ظَلَّ ينظرُ إليه طولَ الوقتِ.

مَرَّتِ العزومةُ بسلامٍ، أكَلَ الجميعُ حتى شَبِعوا، ولَعِبْنا في الحديقةِ كُلَّ أنواعِ الألعابِ، وسألْنا جَدّي كُلَّ أنواعِ الأسئلةِ، وكان كعادتِهِ يَسْتَمِعُ إلينا، ويُجيبُ عن تَساؤُلاتِنا بهدوءٍ وصبرٍ.. وقبلَ المغربِ بقليلٍ، انصرفتْ جُموعُ الضُّيوفِ، بعضُهُم عادوا لِبُيوتِهِم، وبعضُهُم انطلقوا إلى السوقِ أو حَمّامِ السباحةِ، ولم أُحاوِلْ أنْ أُغادِرَ الْبَيْتِ حتَّى أكونَ حاضِرَةً عندما يُواجِهُنا خالي.. لكن حُسَيْنًا بِمُنْتَهَى البراءَةِ استأذنَ أن يَذْهَبَ مع أصحابِهِ إلى حَمّامِ السباحةِ.

فقالَ له خالي: "لا يا حُسَيْنُ.. اِبْقَ مَعَنا قَليلاً".

جَلَسْنا أنا وأخي وَحْدَنا في الشُّرْفَةِ، فقد دخلَ جَدّي وجَدَّتي لِيَرْتاحا، وبعدَ قليلٍ، خرجَ إلينا خالي وقالَ: "يا حُسَيْنُ.. عندما تدعو أصحابَكَ للغَداءِ، لابُدَّ أنْ تُخْبِرَنا أَوَّلاً.. لِنَسْتَعِدَّ لِذَلِكَ".

وقفَ أخي ووقفتُ إلى جِوارِهِ ننتظرُ الْحُكْمَ النِّهائِيَّ على جريمتِنا، لكنَّ خالي لم يَحْكُمْ بأيِّ شَيْءٍ، وإنَّما قالَ بعدَ فَتْرَةٍ: "جميلٌ أنْ تكونَ كريمًا

وتُحِبَّ دَعْوَةَ الناسِ للطعامِ.. ولكن.. لابد أن تُرَتِّبَ الْمَوْضوعَ أَوَّلاً مع الْكِبارِ".. قالَ حُسَيْنٌ بِامْتِنانٍ: "حاضر يا خالي.. شُكرًا.. شُكْرًا جِدًّا جِدًّا".. وتَحَرَّكَ كأَنَّهُ يُريدُ الانْصِرافَ، وأنا مَعَهُ، فقالَ خالي: "اِذْهَبْ الآنَ يا حُسَيْنٌ إلى حجرة الصبيان.. وانْتَظِري أنتِ يا منالُ".. تَرَدَّدَ أخي في الانْصِرافِ، خَوْفًا أنْ يكونَ الْعِقابُ مِنْ نَصيبي أنا، فانْدَفَعَ يقولُ: "منالُ لا دَخْلَ لها في أيِّ شَيْءٍ، أنا الذي دَعَوْتُ الناسَ".. قالَ خالي: "أعْرِفُ يا حُسَيْنٌ، اِنْصَرِفْ أنتَ الآنَ إلى الحجرة".

الْتَفَتَ خالي نَحْوي وقالَ: "أنتِ فتاةٌ مسؤولةٌ وأُقَدِّرُ لكِ أنَّكِ حاولْتِ تقليلَ الأضْرارِ"..

شَعُرْتُ أنَّني أطيرُ مِنَ السعادةِ، اِبْتَسَمْتُ حتَّى تَصَوَّرْتُ أنَّ وَجْهي وجِسْمي كُلَّهُ كانَ يَبْتَسِمُ، وتأَثَّرْتُ مِنْ كَرَمِ خالي، وشَعُرْتُ أنَّني أُحِبُّهُ أَكْثَرَ من أيِّ وقتٍ آخَرَ، فَهَجَمْتُ عَلَيْهِ واحْتَضَنْتُهُ وأنا أقولُ لَهُ: "أُحِبُّكَ.. أُحِبُّكَ جِدًّا يا خالي"..

فاحْتَضَنَني وقالَ: "مِنْ أَيْنَ حَصُلْتِ على كُلِّ هَذِهِ النقودِ"؟ قُلْتُ بُسُرْعَةٍ: "مِنْ مصروفي ومصروفِ حُسَيْنٍ ثُمَّ أخذتُ مِنْ جَدَّتي خَمْسينَ جُنَيْهًا".

فقالَ: "سَوْفَ أَرُدُّها إِلَيْكِ.. ولَكِنْ فِي المراتِ القادمةِ، أَخْبِرينا أَوَّلاً.. رُبَّما كانَ عِنْدَ الْكِبارِ حَلٌّ أفضلُ"..

احْتَضَنْتُهُ مَرَّةٍ أُخْرَى.. ثم تسللت إلى حجرة الصبيان لأطمئن على أخي حسين، لكنه أشار لي أن أنصرف، قبل أن أدخل الحجرة، وهو يقول: "هذا عقاب بسيط، كنت أتوقع أشد منه".. ثم أشار لي بيده أن أنصرف.. فانْطَلَقْتُ لِأَلْحَقَ بأولادِ خالي وخالَتي.